مظاهر الحياة الاجتماعية في الهند في العصور الاسلامية

الاستاذ المساعد الدكتورة خولة شاكر محمد الدجيلي*

تاريخ قبول النشر ٢٠٠٦/١/٢٥

الخلاصة :-

تشكل الحياة الاجتماعية جانبا مهما من الموروث الحضاري لاية امة من الامم يتميز بالحيوية والنشاط ، ومنها امة الهند . فقد اتسمت الهند القديمة بأنظمة اجتماعية منغلقة وجامدة اثرت سلبا في نشاط ومشاركة شرائح واسعة من المجتمع واثارت دهشة العرب المسلمين الفاتحين للهند منذ اواخر القرن الاول الهجري والذين حاولوا جهدهم تغييرها للافضل ليس بالقوة وانما بالتوعية والعمل الصالح ، مما ادى الى تغيير جذري وايجابي في المجتمع الهندي في عصوره الاسلامية بما يحفظ كرامة الانسان ودوره الفاعل في مجتمعه .

* قسم التاريخ – كلية التربية للبنات – جامعة بغداد.

تشكل الحياة الاجتماعية جانباً مهماً من الموروث الحضاري لاية امة من الامم يتميز بالحيوية والتجدد . وعادة ما ينشأ هذا الجانب ثم يتبلور تدريجياً متأثراً سلباً او ايجاباً بجملة من العوامل ، كالعامل الجغرافي ، وذلك لما للبيئة من اثر كبير في تشكيل وتطوير نفسية وعقلية واخلاقية الشعوب ومن ثم بلورة جملة عاداتها وتقاليدها التي ستصبح عنوان حياتها الاجتماعية . كما تؤدي العوامل الاقتصادية والسياسية وحتى النفسية دوراً واضحاً مباشراً او غير مباشر في تكوين مجمل عادات وتقاليد كل امة بحيث تكتسب مع مرور الايام طابعاً اجتماعياً مميزاً يجعلها تختلف في جوانب وتتشابه في جوانب اخرى مع المظاهر الاجتماعية للامم الأخرى . وهنا ينبغي الاشارة الى ان العديد من هذه الشعوب اتسمت بجملة مظاهر اجتماعية تبلورت عبر تاريخها الطويل وتأثرت بمختلف العوامل السابقة بحيث اصبحت تشكل صفات اجتماعية معينة ترتبط بهذه الامة وتميزها من غيرها ، كما في الهند القديمة .

فقد اتسمت الحياة الاجتماعية الهندية القديمة بأنظمة اجتماعية تتصف بالجمود والانغلاق تاركة اثارها السلبية على شرائح واسعة من افراد المجتمع ، هذه الانظمة اقرتها الشرائع الهندوكية وتأصلت في المجتمع الهندي ، بحيث اصبح من المستحيل على الهنادكة انفسهم تجاوزها، اضافة الى تمركز نزعة الاعجاب بالنفس بين الهنادكة القدماء وخاصة ذوي الشأن منهم والاعتداد بأنفسهم(١) . ولعل ابرز تلك الانظمة التي اتصف بها المجتمع الهندي واغربها في نفس الوقت ، هو نظام الطبقات ذو الطابع الديني والاجتماعي القاسي المنغلق والذي قسم المجتمع الى طبقات عليا ووسطى ودنيا ، ثم وضع حدوداً وشروطاً اكتسبت صفة دينية واجتماعية لعدم اختلاطها او محاولتها ، وخاصة الدنيا منها ، تحسين اوضاعها حيث حرمها هذا النظام من كافة حقوقها وصفاتها الانسانية ، هذه الطبقات هي :

١. طبقة البراهمة : وهم يجسدون في عرف هذا النظام ، نقاء الجنس ، ولذلك اصبحوا خيرة البشر ، ويتمتعون بصفات لا يتمتع بها غيرهم كالذكاء والصدق والقدرة على التحمل .
٢. طبقة الكشترية : ويحلون في المرتبة الثانية من سلم نظام الطبقات هذا ، وهم عادة الطبقة الحاكمة والعسكريون .
٣. طبقة البيسشية : وهم العاملون في الزراعة والتجارة .
٤. طبقة الشودرية : وهم احط هذه الطبقات، وعليهم ممارسة احط المهن ، والسكن خارج المدن لمنع اختلاطهم بالطبقات الاخرى ، مع توقيع اقسى العقوبات بحقهم ان بدرت منهم اية بادرة ترمي لتحسين اوضاعهم المزرية(٢).

والملاحظ ان هذا النظام يمنح الطبقة العليا ، وهم البراهمة ، امتيازات لاحدود لها تجعلهم اعلى من البشر وكأنهم اشباه الهة وكل ما في هذا العالم ملك لهم (٣) ، وعلى الجميع طاعتهم بما فيهم الملوك الذين لايستطيعون ابرام أمر دون استشارتهم . كما منح حقوقاً واسعة للطبقة الثانية واقل منها للثالثة ، مع الاصرار على عدم مخالطة هذه الطبقات الثلاث للطبقة الرابعة ، وهي طبقة الشودرية ، فأن فعلوا اصابتهم اللعنة والخزي في حياتهم ومماتهم ونبذوا (٤) .

ومن الطبيعي بعد ذلك ، ان يكرس هذا النظام انواعاً من الظلم الاجتماعي بشكل دائم ، لانه يقيم وبشكل عملي عوائق وحواجز صعبة بين

ابناء الامة الواحدة (٥) ، ويصيب بالشلل شرائح كبيرة من الناس يجردها من انسانيتها ويمنعها ابسط حقوقها ويقيدها بقيود اجتماعية واقتصادية ذات طابع ديني قاس جداً ولا سبيل لتجاوزها ، مما يجعلها عناصر غير فاعلة ولا مؤثرة في المجتمع على الرغم من كثرتها العددية ، مما ساهم في تفتت اوصال المجتمع وشيوع الركود والجمود فيه . اضافة الى وجود سلسلة من الانماط الاجتماعية غير المألوفة ، كتعظيم الملوك وتخريم الاذان ، وتعذيب الجسم بشتى وسائل الحرمان وقتل النفس بالحرق او التغريق وغيرها(٦).

هذه السلسلة من الانماط الاجتماعية المتوارثة اثارت دهشة العرب المسلمين الفاتحين للهند منذ اواخر القرن الاول الهجري لاختلافها الكلي عن مجمل عاداتهم وتقاليدهم ، والتي اخذت تنتشر تدريجياً مع انتشار الاسلام في المجتمع الهندي الذي بدأ يتقبلها قبولا حسناً ، فبدأت تختفي بعض تلك العادات الهندية القديمة التي عجزت عن المقاومة واثبات فاعليتها ، واولها كان تداعي نظام الطبقات . فمع ان الحكام العرب والمسلمين للهند لم يعمدوا الى الغائه بالقوة ، الا ان تعرف الاهلين على مبادئ الاسلام الانسانية السامية وتحطيم انظمته عملياً لكل حواجز اللون والطبقية وتطبيقه لمبادئ المساواة والعدل واهماله للقيود الاجتماعية المتبعة قديماً ، اضافة الى روح التسامح الديني والفكري التي ابداها معظم الحكام العرب والمسلمين تجاه الهنادكة ؛ كانتا اهم عاملين في انهيار ذلك النظام . فما ان ادرك هؤلاء ان من اول مسلمات الدين الجديد ان جميع معتنقيه يتمتعون بنفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات بغض النظر عن الجنس واللون ، حتى اخذت مجاميع كبيرة من السكان تدخل في دين الله افواجاً ، وخاصة من بين الشودريه ، الذين شكلوا وخاصة في الفترات الاولى ، القاعدة الشعبية للاسلام في الهند . وبذلك زال عملياً نفوذ طبقة البراهمة المطلق وانحصر في الاشراف على الامور الدينية ، كما تلاشت الطبقة الثانية وهي الكشترية بين الطبقات الاخرى بسبب مقتل الكثير من افرادها او تحولهم الى ممارسة المهن المختلفة ، بينما بقي وضع الطبقة الثالثة وهي الفيشية كما كان مع استمرار تأييدهم للعرب وانضواء اعداد متزايدة منهم للاسلام (٧) .والمهم هنا ان تحرر الكثير من افراد الطبقة المنبوذة نتيجة دخولهم في الاسلام ، قد فتح ابواب العمل السياسي والاقتصادي واسعة امامهم مع تبوئهم مراكز اجتماعية عالية ، خاصة بعد ان اشتدت حركة المصاهرة بين العرب والمسلمين المستقرين بالهند والهنود ، والتي شملت فيما بعد ايضاً افراد الطبقات الهندية العالية والمثقفة التي جذبتها بساطة الدين الجديد وقوته (٨) ، تدريجيا بدأ هؤلاء المولدون يلعبون دورا بارزا في الحياة الاجتماعية(٩) واثبتوا جدارتهم في كل المجالات بفضل قدراتهم الممتازة .

وبانهيار نظام الطبقات هذا بعد الفتح العربي والاسلامي للهند ، بدأت تتشكل مجاميع طبقية جديدة تساير التطور الحاصل في المجتمع ، ولا تنتقص من كرامة الانسان او تمس حقوقه . ففي فترة الادارة العربية للهند والتي استمرت منذ اواخر القرن الاول للهجرة حتى اواخر القرن الرابع للهجرة ، ظهرت عدة طبقات ، كانت اعلاها طبقة الحكام والاعيان والتي ضمت الولاة ونوابهم والقضاة وقواد الجيش والعلماء سواء من العرب او من الاهلين (١٠) ، ثم الطبقة المتوسطة من التجار والمزارعين واصحاب المصانع وصغار الموظفين واصحاب المهن (١١) اضافة

الى الطبقة العامة التي ضمت صغار العمال والفلاحين والخدم والعبيد ومعظمهم من اصل هندي (١٢) . هذه البنية الطبقية شهدت وضوحا اكبر في المجتمع الهندي في العصر الاسلامي منذ القرن الخامس الهجري والقرون اللاحقة ، فقد كانت الاسرة الحاكمة تأتي في المقدمة ، ومن بعدها طبقة الامراء ورجال الدولة ، ثم طبقة التجار واصحاب الحرف والصناعات واخيرا طبقة الرقيق(١٣).

في هذا المجتمع ، نال العرب محبة وتقدير واحترام الاهلين لهم . فقد كانوا يخاطبونهم بالتسويد ، اي باضافة كلمة "سيدي" الى كلامهم الموجه للشخص العربي تعظيما له (١٤) . كما اظهر السلاطين محبتهم لهم كالسلطان محمد تغلق الذي كان مؤثرا لهم معترفا بفضائلهم ويخاطب كبارهم في مجلسه بكلمة والدي(١٥) ، ويتشرفون بتزويج نسائهم لهم ، اما الشرفاء منهم فكانوا معظمين اشد التعظيم . وحفلت مجالس السلاطين ومواكبهم بأعداد متزايدة من الشرفاء والعلماء العرب ، كما تولوا مناصب ادارية مختلفة كأدارة بعض المدن (١٦) . واستقرت اعداد متزايدة منهم في مدن الهند المختلفة حتى تلك التي لم تنضو تحت ادارة الحكم الاسلامي . حيث نالوا احتراما متزايدا من قبل الحكام والسكان معا ، كما في مدينة بلهرا (١٧) .واستقرارهم هذا جعلهم يقيمون احياء خاصة بهم تحفل بمساجدهم ولهم فيها القضاة والخطباء وامراء التجار ، ويترأسهم احد كبارهم ، وتعترف حكومات هذه المدن بسلطاتهم ويتمتعون بالاعزاز والتقدير(١٨)، اما العاصمة دلهي فقد وردها وسكنها الالاف من العرب (١٩) .

ومن الطريف ان نذكر ، ان الغرباء في الهند كانوا يلقبون بـ الاعزة كما جرت عادة الملوك . فمثلا حرص السلطان محمد تغلق ،على اكرامهم ومنحهم المراتب الرفيعة واقطاعهم الولايات ، حتى ان معظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وحتى اصهاره كانوا منهم . كما جرت العادة ان تدون اسماء من يريد الاقامة بالهند حال دخوله ويكتب له عقدا بذلك ، ثم يضيفه حاكم تلك المنطقة ، بعد وصول اذن السلطان ، في دار الضيافة (٢٠) .

اما بالنسبة للمرأة ، فلم يكن لها في المجتمع الهندي القديم مكانة طيبة . فقد جردت من الكثير من حقوقها ، وبخست مكانتها الاجتماعية الى حد كبير . وما عادة حرق المرأة المتزوجة لنفسها ، وخاصة غير ذات الولد ، بعد وفاة زوجها الا خير دليل على ذلك ، حيث كانت التقاليد الهندية تدفعها لذلك ، اذ ليس للارملة حق الزواج ثانية ، وهي عندها بين امرين ، اما ان تحرق نفسها ، وعندها يرتفع شأنها وشأن عائلتها ويزدادون شرفا وينسبون للوفاء وهو افضل لها ، او ان تقرر العيش ولكنها تعيش بائسة ممتهنة طوال حياتها متهمة بعدم الوفاء وتجبر على لبس الثياب الخشنة وتعيش وحيدة بقية عمرها . وحالة الاختيار هذه على قساوتها المتناهية ؛ لاتطبق على نساء الملوك فرسمهن الاحراق شئن ام ابين، ولاتعفى منها الا العجائز او ذوات الاولاد في حالة تكفل الابن بصيانة امه وحفظها (٢١) . كما حرمن من حقوقهن في الارث ، عدا الابنة فلها ربع ما للابن لحين زواجها حيث يسقط حقها(٢٢)، واذا لم يكن للمتوفي وريث عادت امواله للبراهمة والملك (٢٣) . وجوزت التشريعات الهندوكية الزواج بالمحرمات ، كما عرف المجتمع حالة تعدد الزوجات وبدون حدود، كما كان من المتعارف عليه ايضا تقديم الاباء

بناتهن للمعابد كجاريات طوال حياتهن حيث يعرفن بأسم جاريات المعابد (٢٤) .

هذه الحالات الاجتماعية وغيرها تغيرت كثيراً بعد انتشار الاسلام في المجتمع الهندي الذي احدث تغييراً اساسيا في مركز المرأة الهندية حين ادخل قيماً جديدة رفع بها مكانة المرأة بما تستحقه ومنحها حقوقها الطبيعية في التملك والارث (٢٥)، والعمل واختيار ما يناسبها ، مما مكنها من المساهمة في مختلف الانشطة الثقافية والاجتماعية. فظهر من بينهن حافظات للقرآن كنساء مدينة هنور (٢٦) ، واهتممن بالقراءة والمطالعة ونظم الشعر وتدوين المؤلفات وخاصة التاريخية منها باسلوب ادبي راق ، كما برعن بالخط وصناعة الحلي ، واظهرن اهتماما بالعلم وانشاء المكتبات واكرام العلماء والادباء والفقهاء(٢٧) ، وتمتعن بقدر كبير من الحرية اتاح لهن اظهار مواهبن وممارسة نشاطهن ، بحيث وصل بعضهن لعرش السلطنة الذي تسنمته السلطانة رضية ابنة السلطان المملوكي شمس الدين التمش التي اظهرت قدرات ادارية وعسكرية عالية (٢٨) . كما مارسن انشطة سياسية مختلفة وخاصة نساء الاسر الحاكمة ، كالذي قامت به شاه تركان والدة السلطان فيروز تغلق ، كما كان لزوجات بعض السلاطين تأثيرات سياسية مباشرة او غير مباشرة كزوجتي السلطانين جلال الدين الخلجي وعلاء الدين الخلجي (٢٩) . وعرفت نورجهان زوجة السلطان المغولي جهانكير بنشاط سياسي كبير ودور اجتماعي متميز . حيث وجهت الكثير من جهودها للنهوض بالمرأة الهندية ورفع الجور عنها(٣٠) . وتحقيقا لأنسانية المرأة وصيانة لكرامتها وتأكيداً لدورها ، فقد حاولت الادارة الاسلامية للهند منع عادة احراق المرأة لنفسها ، وان لم يكن بالقوة ، فلم تكن تحصل الا بأذن من السلطان نفسه (٣١).

كما سنت الادارة الاسلامية للهند وخاصة زمن السلطان المغولي جلال الدين اكبر ، سلسلة من التشريعات كان الهدف منها صيانة كرامة المرأة والحفاظ على حقوقها ومكانتها سواء كانت مسلمة ام هندوكية . فقد منعت هذه التشريعات زواجها قبل بلوغ سن الرشد ، وفتحت افاقا امام زواج الارملة الهندوكية بالذات التي منعتها تقاليدها من الزواج ثانية ، كما منعت هذه التشريعات اختلاط النساء والرجال في الاسواق او عند الشواطئ طلباً للسقي او للاغتسال ، وحثت الرجال على الاكتفاء بزوجة واحدة والابتعاد عن الزواج ، ما أمكن ، بالاقارب (٣٢) .

والملاحظة المهمة هنا ، انه على الرغم من اختلاف الاسس الاجتماعية والاصول الفكرية للكثير من العادات والتقاليد العربية الاسلامية والهندية القديمة (٣٣) الا ان العرب والمسلمين استطاعوا ان ينشروا العديد من مظاهر حياتهم الاجتماعية بالرغم من كونهم اقلية تجاه السكان الاصليين . وبالتأكيد فان عملية التأثير هذه استغرقت مدة طويلة ، حيث وجد المجتمع الهندي وخاصة المسلم ، انه قد غلبت عليه العادات والتقاليد العربية الاسلامية والعراقية منها بالذات(٣٤) . مع الاخذ بنظر الاعتبار الى ان العرب والمسلمين تأثروا ببعض العادات المحلية البسيطة والمقبولة ، لاسيما في الملبس والمأكل والمسكن والتي فرضتها البيئة والمناخ (٣٥) . اضافة الى انتشار عادات اخرى ، وخاصة على الصعيد الرسمي ، تأثرت بالروح المحلية ، كمراسم البلاط وما ارتبط بها من مظاهر الابهة والبذخ التي تصل الى حد الدهشة . فنجد ان السلاطين المسلمين في الهند اوجدوا تقاليد راقية

رفيعة للغاية ، والزموا حاشيتهم ورجال البلاط وموظفي الدولة عموماً بمراسيم معينة ، سواء في اداب الوصول اليهم او الجلوس معهم وحتى في ملابسهم ، كما اشاعوا في مجالسهم هذه روح الاسلام والتمسك بأدابه وفضائله . والمعتقد ان اول من وضع هذه التقاليد والرسوم السلطانية ، هو السلطان غياث الدين بلبن ، حيث تنسب اليه صفوة تلك العادات والتقاليد الرفيعة والتي سار عليها خلفائه من بعده (٣٦) . ومن تلك العادات وما يصاحبها من رسوم معينة ، عادة جلوس السلطان في بلاطه ؛ فقد كان من المتعارف عليه ان يجلس السلطان في الصباح او بعد العصر ، ويقف بين يديه الوزير وعلى جنبه كبير الامراء ، وخلف الوزير الكتاب ، وخلفهم الحجاب وكبيرهم ادناهم الى السلطان ، ثم وكيل الدار ونائبه ، ويتلوهم النقباء وهم حوالي المائة . وباستقرار السلطان في مجلسه ينادي الحجاب والنقباء باسم الله تعالى ، ليصطف بعدها مائتان من الجند الشاكي السلاح عن يمين السلطان ويساره ، ثم يقف يميناً ويساراً كل من قاضي القضاة ، وخطيب الخطباء وسائر القضاة وكبار الفقهاء والشرفاء والمشايخ ، ثم اخوة السلطان واصهاره وبقية الامراء الكبار ثم كبار (الاعزة) واخيراً القواد . وبعد ان يأخذ كل فرد في بلاط السلطان موضعه المعلوم تستعرض امام السلطان الفيلة المدربة والفرس الملجمة ، وكانت مجالس الولاة وحكام الولايات تشابه مجالس السلاطين الى حد كبير (٣٧) .

وكان من المتعارف عليه ايضاً ، وخاصة في العصر المغولي ، ظهور السلطان امام الناس ولاكثر من مرة في اليوم . اضافة الى استعراضه بنفسه لمختلف التمرينات العسكرية التي تتم في ساحة القصر ، ثم يعود للجلوس في بلاطه عصراً لاستقبال الناس والاستماع الى مختلف الامور (٣٨) ، ليتم بعدها تقديم الطعام وبمختلف انواعه من اللحوم والخضر والحلويات والفاكهة والاشربة لكل حاضر في مجلس السلطان، وهو ما يسمى بالطعام الخاص تمييزاً عن الطعام العام ، ثم توزع النقود على الحاضرين كل قدر استحقاقه (٣٩) .

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية الاسلامية في الهند ، عاداتهم في الاعياد التي احتفلوا بها بشكل بديع ، حيث ابدى السلاطين عنايتهم الفائقة بها . فقد جرت العادة في ليلة العيد ان يرسل السلطان الهدايا والخلع الثمينة لموظفي الدولة كافة صغيرهم وكبيرهم ، وفي صبيحة العيد يخرج السلطان من قصره في موكب من الفيلة المزينة بابهى الزينة ويمشي بين يديه نقباؤه وخدمه ، ويركب مع اهله وخواصه ومعهم الجند المجهزين تجهيزاً كاملاً وكذلك القضاة والاشراف والاعزة ، وبعد ان يصل هذا الموكب الحافل الى المسجد ، يؤدي الجميع صلاة العيد ، فاذا كان العيد هو عيد الاضحى ، نحر السلطان ، ثم يعود الموكب بعدها للقصر الذي يكون مكسواً بحلة بهية من الزينة والفرش ويعد لاستقبال مهنئي السلطان (٤٠) . اما اذا حل العيد والسلطان خارج العاصمة ، عندها يخرج الموكب الى المسجد برئاسة الخطيب لابساً السواد وحوله المؤذنون يكبرون ومعهم الفقهاء والقضاة ، وكل واحد منهم يتصدق حسب قدرته . وبعد اداء الصلاة والخطبة ، ينصرف الجميع(٤١) . وعادة ما كانت تطبخ في الاعياد وبقية المواسم كالمولد النبوي ويوم عاشوراء وليلة النصف من شعبان وغيرها الاطعمة ليأكل منها الفقراء والمساكين (٤٢) .

ومن المظاهر الاجتماعية السائدة في الهند الاسلامية عادة تقديم الهدايا للسلطان كل

حسب طاقته ، من كبار القوم الى اهل الطبقات الدنيا ، حيث كان السلاطين يتقبلون هدايا هؤلاء البسيطة بتقدير كبير (٤٣) .وكان لهذه العادة مراسم معينة ، فبعد ان يعلم السلطان من قبل حجابه ووكيل الدار بوصول هدية من شخص ما ، عندها يدخل على الساطان ، وتحمل هديته ليراها الجميع ، ثم يستقدمه الساطان ويشكره ويتقبل هديته ثم يخلع عليه بما يستحقه (٤٤) . كما جرت العادة ايضاً ان يبعث الساطان لكل امير او وال على مدينة ولكبار القادة فيها خلعتين في السنة ، خلعة الشتاء وخلعة الصيف . فأذا وصلت الخلع ، خرج الامير بجنده لاستقبالها واستلامها ، كالذي كان يفعله مثلاً السلطان محمد تغلق (٤٥) .

وكان من مراسم البلاط ايضاً ، عادة الخروج لاستقبال السلطان عند عودته للعاصمة . اذ يأمر الوزير كبار القوم بالخروج لاستقباله في موقع خارج العاصمة ومع كل واحد منهم هدية يقدمها للسلطان الذي يرحب بهم ويبادلهم الهدايا . ثم يركب السلطان ومن معه الفيلة المزينة ، وتوضع القباب الخشبية المكسوة بالحرير في الطرق التي يمر بها السلطان حيث تجلس فيها المغنيات والرواقص ، وفيها ايضاً احواض ماء الورد ليشرب منها الناس . وما ان يصل السلطان المدينة حتى يبدأ المشاة من خدمهِ وهم بالالاف بنثر الدراهم والدنانير على الناس ، ثم ينفض الموكب عند وصوله القصر السلطاني ، حيث يتم بعدها ، احياناً ، التصدق بمبالغ كبيرة من المال توزع على الناس والاعزة ، كما فعلت والدة السلطان محمد تغلق (٤٦) .

من ناحية اخرى ، مثلت المجالس الادبية والعلمية واجهة اجتماعية مهمة لاسيما في مثل ذلك المجتمع . فقد كانت تعقد بكثرة في قصور السلاطين وبيوت الامراء ورجال الدولة ويحضرها الادباء والعلماء للمناظرة والمناقشة . وقد حظي هؤلاء بتقدير واحترام اولي الشأن الذين اهتموا بتوفير سبل المعيشة الكريمة لهم ، فمنحوهم الوظائف والاقطاعات والرواتب ، ومن ثمّ تمتعوا بمكانة اجتماعية عالية(٤٧) . وفي مثل هذا المجتمع ، نالت الفنون الراقية ، كالموسيقى والغناء مكانة متميزة ، فقد ابدى الهنادكة القدماء اهتماماً كبيراً بالموسيقى وشغفوا بها وشجعوها . وبقيام الحكم الاسلامي في الهند اواخر القرن الرابع للهجرة / العاشر الميلادي ، زاد الاهتمام بالموسيقى وأصبحت من الامور التي لاغنى للناس عنها في حياتهم اليومية ، كما شغف بها السلاطين المسلمون فقد عرف عن الامير محمد بن السلطان غياث الدين بلبن شغفه بالموسيقى وتعلمه لها ، كما ضم بلاط السلطانين جلال الدين الخلجي وعلاء الدين الخلجي عدداً من اشهر وافضل الموسيقيين انذاك الذين احتلوا مكانة اجتماعية مرموقة دفعت الكثير من موسيقيي البلاد الاخرى كخراسان وبلاد الافغان للقدوم الى الهند وخاصة دلهي للاستقرار بها ، مما ادى الى ازدهار الموسيقى والغناء بين الناس على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية(٤٨) . وكان من نتائج ازدهار هذا الفن ، ان اصبح للمغنين حارة خاصة بهم في العاصمة دلهي تسمى طرب آباد ولهم فيها سوق يعد من اجمل الاسواق ، فيه بيوتهم ودكاكينهم الفاخرة الرياش ، ولهم رئيس منهم . والملفت للنظر ، ان لهم في سوقهم هذا عدة جوامع يؤدون فيها صلاتهم في مواعيدها(٤٩) . كما كان للمغنيات ، وخاصة مغنيات البلاط ، دور كبير حيث قمن بحفلات الاعياد والزواج وظهرت من بينهن عدة فئات ، واعتبرن عموماً طبقة راقية ومحترمة(٥٠) .

ومن العادات الاجتماعية الهندية القديمة، عادة تحريم شرب الخمر(٥١) ، وخاصة عند طبقة البراهمة التي اعتبروها من اعظم المعايب(٥٢) . وكان من الطبيعي ان تؤكد الادارة الاسلامية بعد قيامها في الهند على تحريمها ، ومن فعلها قتل او حدّ وسجن عدة اشهر(٥٣) ، حيث اشتد السلاطين ، وخاصة المغول منهم ، في منع صناعته وتجارته وتعاطيه ، وكذلك الميسر(٥٤).

ومع ازدياد نسبة الاستقرار العربي والاسلامي في الهند كان من الطبيعي ان تتزايد عمليات الاحتكاك والاختلاط بينهم وبين الاهلين، وما ادت اليه من قيام المصاهرة والتزاوج بين الطرفين .ولم يقتصر هذا التزاوج على نساء الطبقة المنبوذة اللواتي اسلمن ، وانما بدأ يشمل بنات الطبقات الهندوكية الراقية ايضا . فقد اخذ المسلمون وعلى رأسهم سلاطينهم يتزوجون منهم، بل ان بعضهم كالسلطان المغولي الثالث جلال الدين اكبر ، حضّ الامتين على التزاوج المختلط جاعلاً من نفسه قدوة للاخسرين ، فتمست بذلك مصاهرات مهمة بين الامراء المسلمين والامراء الهندوس(٥٥) . كما كانت الرغبة في التزوج من العرب واضحة ، لشرفهم ومكانتهم الاجتماعية المرموقة ، وخاصة عند الحكام المسلمين ، الذين سعوا لتزويج بناتهم او اخواتهم للعرب ، مع اضفاء كافة انواع الابهة والتكريم على مثل هذا الزواج ، واقامة الحفلات والولائم الفاخرة واغداق الهدايا والاموال على العروسين والحاضرين وبقية الناس . وما حفلة زواج اخت السلطان محمد تغلق من الامير العربي سيف الدين غدا ببدهة الله الاخير دليل على ذلك(٥٦) .

ومن العادات الاجتماعية التي عرفها المجتمع الهندي الاسلامي والتي بقيت تحمل في اثنائها روحا هندية قديمة ، هي عادتهم في دفن الموتى . فقد كانوا يعدون للميت مايناسب مكانته وهو على قيد الحياة ، فتربط الخيل والفيلة على باب تربته ، ويؤتى بالقراء والصوفية والامسام والمؤذنين والفراشين والطباخين ويطعم فيها الناس كل حسب طاقته(٥٧) . ومن عاداتهم ان يخرجوا لقبر الميت صبيحة اليوم الثالث من دفنه ، فيفرشون القبر بالبسط والفرش ، ويجعلون الازاهير واغصان النارنج والليمون بثمارها على القبر مع الفواكه اليابسة وجوز النارجيل . وبعد ان يجتمع الناس ، يقرأ القرآن الكريم ، ثم يسقى الناس ماء الورد ويوزع عليهم ورق التانبول ، فاذا كان اهل الميت من المقربين للبلاط ،وزعت عليهم الخلع والهدايا (٥٨) . وفي حالات اخرى ، كانت البساطة في مراسيم الدفن بما يتناسب والروح الاسلامية ، هي المتغلبة . فقد اوصى السلطان المغولي اورنكزيب رجاله بأقامة جنازة بسيطة له والاسراع بدفنه في اقرب مقبرة من مقابر المسلمين ، وان يكون ثمن كفنه زهيداً ومن صلب ماله الذي كان يكسبه من صنع الطواقي وبيعها ، وان يتصدقوا بما بقي من ماله الذي ادخره من نسخه القرآن الكريم وبيعه للفقراء(٥٩).

والملاحظ ان الشريعة الاسلامية طبقت تماما في المجتمع الهندي المسلم بالنسبة لارث الميت ، اذ يبقى هذا المال بيد كبير المسلمين حتى يأخذه مستحقه شرعاً(٦٠) . وفي حالة اشهار الهندي لاسلامه ، فقد جرت العادة بأدخاله على السلطان الذي يكسوه كسوة حسنة مع حلي ذهبية كل حسب قدره(٦١) . كما عرف هذا المجتمع عادة النذور وتطبيقها (٦٢) .

اما بالنسبة لطرز العمارة ، فمما لاشك فيه ان الهند القديمة عرفت فنا معماريا بديعا

وراقياً تجلى في ابنيتها ومعابدها الفخمة(٦٣) . وبعد الاستقرار العربي الاسلامي في الهند ، كان فن العمارة من المجالات الرئيسة التي عبر المسلمون بواسطتها عن حسهم وفنهم المعماري الاصيل ، حيث كان لالتقاء الفكرين العربي الاسلامي والهندوكي اثره العميق في تطور وازدهار الحركة المعمارية في المجتمع الهندي الاسلامي التي وصلت اوجها في فترة حكم الاسرة المغولية للهند(٦٤) . فانتشر بناء المساجد والقصور والمقابر التي تمثل النبوغ الفني الهندسي المعماري في النقش والتناسق والتناسب في البناء(٦٥) ، بما يشهد بعظمة الاثر الاسلامي على العمارة الهندية(٦٦) ، وخلق فن معماري يمتاز بالرونق والجمال والبساطة(٦٧) . ولعل منشآت مثل مسجد منارة قطب في دلهي ومقبرة تاج محل في اكرا خير دليل على ذلك(٦٨).

والذي يهمنا هنا هو طبيعة المساكن التي ابتناها الناس والحكام لانفسهم . فالملاحظ ان الحكام العرب والمسلمين الاول سكنوا بيوتاً بسيطة، او استقروا داخل المعسكرات والقلاع(٦٩) ، وبمرور الوقت ، اخذ الحكام والسلاطين يبنون القصور الفخمة الفارهة بل والمدن الكبيرة الخاصة بهم (٧٠) ، وكذلك فعل ذوي الشأن والاعيان ، اما ابناء الطبقة المتوسطة فسكنوا بيوتاً مزخرفة كبيرة توحي بالرفاهية ، اما عامة الناس فسكنوا الاكواخ المبنية من الخشب او الخوص(٧١) .

وبسب بيئة الهند الحارة الرطبة ، فقد شاع بين السكان استخدام نوع من الملابس هي الازر والميازر والقراطق وهي الاقبية ، التي تتناسب مع جو البلاد . وبقيام الحكم العربي والاسلامي للهند ارتدى الحكام وعليه القوم في البداية الملابس العربية من الجلاليب والعباءات والعمم . ولكن بحلول منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، اخذ زي الحكام والامراء يشابه زي الامراء الهنادكة (٧٢) . الا ان من الملاحظ ان زي السكان عموما مسلمين وهنادكة وفي الكثير من مدن الهند كان يشبه زي العرب وخصوصاً العراقيين (٧٣) .

واسوة بالمجتمعات الاسلامية الاخرى ، فقد سادت في المجتمع الهندي الاسلامي وسائل التسلية المشروعة ، كالشطرنج والمصارعة والكرة والصولجان ، وسباق الخيل ومصارعة الحيوانات كالجمال والغزلان والفيلة . الا ان اكثر وسائل التسلية شيوعاً كانت تربية الحمام التي عرفتها حواضر الدولة العربية الاسلامية المختلفة في العصور الوسطى ايضاً ، والتي ابدى الناس ، والحكام خصوصاً ، اهتماماً كبيراً بها . بل ان السلطان المغولي جلال الدين اكبر منحها اسماً لطيفاً هو عشق الحمام ، وكان له ما يقارب العشرين الف حمامة في برج خاص بها ، اودع العناية به الى خدم دونت اسماؤهم في ديوان الجند، ورواتبهم كرواتب الجند تماماً(٧٤) .

قائمة المصادر والمراجع:

١. راجع : البيروني : ابو الريحان احمد ، في تحقيق ما للهند – لايبزج – ١٩٢٥ .

٢. حول نظام الطبقات هذا انظر ما كتبه : ابن خرداذبة : ابو القاسم عبيد الله ، المسالك والممالك ، ليدن – ١٨٨٩ ، ص٧١ ، البيروني ، ن . م، الادريسي ، ابو عبد الله محمد ، نزهة المشتاق ، ص٩٦ ؛ ابن سعيد . علي بن موسى ، كتاب الجغرافية ، تحقيق : اسماعيل العربي ، ط١ ، بيروت – ١٩٧٠ ، ص١٣٤ .

٣. لوبون ، غوستاف ، حضارة الهند ، ترجمة عادل زعيتر ، ط١ ، ١٩٤٨ ، ص٢٩٨ – ص٢٩٩ .

٤. محمود ، حسن احمد ، الاسلام والحضارة العربية في اسيا الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص١٧١ .

٥. العربي ، اسماعيل ، الاسلام والتيارات الحضارية في شبه القارة الهندية ، ١٩٨٢ ، ص١٢ ، ص٣٤ .

٦. الطرازي ، عبد الله مبشر ، موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية لبلاد السند والبنجاب ، ج٢ ، جدة ، ١٩٨٣ ، ص١٣٥ – ص١٤٣ .

٧. انظر : الطرازي ، ن . م ، ج٢ ، ص١١٨ – ص١٢٠ .

٨. محمود ، ن . م ، ص٢٣٦ ؛ راجع : الفقي ، عصام الدين عبد الرؤوف ، بلاد الهند في العصر الاسلامي ، القاهرة – ١٩٨٠ ، ص٣١ .

٩. زكي ، عبد الرحمن : المسلمون في العالم اليوم ، اسيا الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص١٠ .

١٠. الطرازي ، ن . م ، ج٢ ، ص١٢٢ – ص١٢٣ .

١١. ن . م ، ص١٢٧ – ص١٢٨ .

١٢. ن . م ، ص١٢٨ .

١٣. ينظر : الساداتي ، احمد محمود ، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ، ج٢ ، القاهرة – ١٩٥٧ ، ص٣٠٨ – ص٣١٠ ؛ الفقي : ن . م ، ص٢٢١ – ص٢٢٢.

١٤. ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله ، تحفة النظار ، تحقيق احمد العوامري بك ، ج٢ : القاهرة – ١٩٣٨ . ص٣١٠ .

١٥. ابن بطوطة ، ن . م ، ص٧٦ – ص١٤٠ .

١٦. ن . م ، ص١٧٣ ، ص١٧٨ .

١٧. السيرافي ، سليمان ، اخبار الهند والصين ، ضمن كتاب من رحلات العرب تقديم : نقولا زيادة ، بيروت – ١٩٧٤ ، ص٢٧ ؛ المسعودي ، ابو الحسن علي ، مروج الذهب ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ج١ ، ط٣ ، مصر ، ١٩٥٨ ، ص١٧٠ .

١٨. يراجع : ابن بطوطة ، ن . م ، ج٢ ، ص٤ – ص٥ ، ص١٨٠ – ص١٩٠ ؛ بزرك بن شهريار ، عجائب الهند ، ضمن كتاب من رحلات العرب ، تقديم نقولا زيادة . ص١٦٠ ، ص١٧٠ .

١٩. ابن بطوطة ، ن . م ، ج٢ ، ص٢٨ .

٢٠. ن . م ، ص٣ ، ص١٢ ، ص١٣ .

٢١. ينظر : البيروني ، ن . م ، ص٢٧٨ ؛ ابن بطوطة ، ن . م ، ج٢ : ص٢٠ – ص٢١ .

٢٢. البيروني ، ن . م ، ص٢٨١ .

٢٣. خطاب ، محمود شيت ، الهند قبل الفتح الاسلامي وفي ايامه ، فرزة من مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج١ ، ج٢ ، م٣٢ ، ص١٩٨ – ص٢١٩ .

٢٤. الطرازي ، ن . م ، ج٢ ، ص١٣٢ .

٢٥. السامر ، فيصل ، الاصول التاريخية للحضارة العربية الاسلامية في الشرق

الاقصى ، ط١ ، بغداد – ١٩٧٧ ، ص١٠١ .
٢٦.ابن بطوطة ، ن . م ، ج٢ ، ص١٧٧ .
٢٧.السامر ، ن . م ، ص١٠١ – ص١٠٢.
٢٨.ابن بطوطة ، ن . م ، ج٢ ، ص٣٢ – ص٣٧ .
٢٩.الفقي ، ن . م ، ص٢٢٠ .
٣٠.الساداتي ، ن . م ، ج٢ ، ص١٧٩ .
٣١.ينظر : ابن بطوطة ، ن . م ، ج٢ ، ص٢٠ – ص٢١ ؛ الساداتي ، ن . م، ج١ ، ص٢٥٥ .
٣٢.النمر ، عبد المنعم ، تاريخ الاسلام في الهند ، ط١ ، بيروت – ١٩٨١ ، ص٢٧٩ ؛ الساداتي ، ن . م ، ج٢ ، ص١٣٩ – ص١٤٠ .
٣٣.الساداتي ، ن . م ، ج١ ، ص٢٥١ .
٣٤.المقدسي ، احسن التقاسيم ، ط٢ ، ليدن -١٩٠٦ ، ص٤٨١ .
٣٥.ينظر : العربي ، ن . م ، ص٣٧ ؛ الطرازي ، ن . م ، ج٢ ، ص١٤٤.
٣٦.ينظر : الساداتي ، ن . م ، ج١ ، ص١٤٣ ؛ عبد الرؤوف ، عصام الدين، الحياة السياسية في الهند في عهد الملوك المماليك ، مجلة المؤرخ العربي ، عدد ٨ ، بغداد ، ص٥٥ .
٣٧.يراجع : ابن بطوطه ، ج٢ ، ص١٢ ، ص٥٥ .
٣٨.لوبون ، ن . م ، ص٤٢٦ .
٣٩.ابن بطوطة ، ن . م ، ج٢ ، ص١٤ ، ص٦٣ ، ص٩١ .
٤٠.ن . م ، ج٢ ، ص١٥٨ – ص١٦٠ .
٤١.ن . م ، ج٢ ، ص١٢٦ .
٤٢.ن . م ، ج٢ ، ص١٤٤ .
٤٣.الساداتي ، ن . م ، ج٢ ، ص١٦١ .
٤٤.ابن بطوطة ، ن . م ، ج٢ ، ص٥٤ .
٤٥.ن . م ، ج٢ ، ص١١٥ .
٤٦.ن . م ، ج٢ ، ص٦٢ .
٤٧.ينظر : الفقي ، ن . م ، ص٢٧٧ ، ص٢٤٥؛ الطرازي، ن . م ، ج٢، ص١٢٥ .
٤٨.الفقي ، ن . م ، ص٢٢٣ – ص٢٢٥ .
٤٩.يراجع : ابن بطوطة ، ن . م ، ج٢ ، ص٨ ، ص٢٧ .
٥٠.السامر ، ن . م ، ص١٠٠ .
٥١.ابن خرادذبة ، ن . م ، ص٦٦ – ص٦٧ .
٥٢.ابن بطوطة ، ن . م ، ج٢ ، ص١٧١ .
٥٣.المقدسي ، ن . م ، ص٤٨٠ ؛ ابن بطوطة ، ن . م ، ج٢ ، ص١٧١.
٥٤.الساداتي ، ن . م ، ج٢ ، ص١٦٦ ، ص٢١٥ .
٥٥.يراجع : محمود ، ن . م ، ص٢١٩ ؛ السامر ، ن . م ، ص٨٣ ؛ لوبون ، ن . م ، ص٤٢٤ .
٥٦.ابن بطوطة ، ن . م ، ج٢ ، ص٧٧ – ص٧٩ .
٥٧.ابن بطوطة ، ن . م ، ج٢ ، ص١٤٣ .
٥٨.حول هذا الموضوع انظر ماذكره : ابن بطوطة ، ج٢ ، ص١٢٣ – ص١٢٤ .
٥٩.الساداتي ، ن . م ، ج٢ ، ص٢٤٤ .
٦٠.ابن بطوطة ، ن . م ، ج٢ ، ص١٨٤ .
٦١.ن . م ، ص٤٦ .
٦٢.ن . م ، ص٤١ .
٦٣.خطاب ، ن . م ، ص٢٠٢ .

٦٤. السامر ، ن . م ، ص٩٤ .

٦٥. النمر ، ن . م ، ص٤٠٠ .

٦٦. العربي ، ن . م ، ص٦٧ .

٦٧. الندوي ، محمد اسماعيل ، تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ، بيروت ، ص٦٤ .

٦٨. العربي ، ن . م ، ص٦٨ – ص٦٩ .

٦٩. الطرازي ، ن . م ، ج٢ ، ص١٢٤ .

٧٠. ينظر : ابن بطوطة ، ن . م ، ج٢ ، ص٢٤ .

٧١. الطرازي ، ن . م ، ج٢ ، ص١٢٥ – ص١٢٩ .

٧٢. ن . م ، ص١٢٥ .

٧٣. حول هذا الموضوع يراجع : ابن حوقل، محمد بن علي ، صورة الارض، بيروت ، ص٢٨٠ ؛ الاصطخري ، ابراهيم بن محمد : المسالك والممالك ، تحقيق : محمد جابر الحيني ، القاهرة – ١٩٦١ ، ص١٠٣ ، ص١٠٥ .

٧٤. السامر ، ن . م ، ص١٠٠ – ص١٠١.

Social Manifestation in India in the Islamic period

Dr. Khawla Shakir M. AL – Dujaily
History Dept. – The College of Education for Women
Baghdad University

Abstract:

The Social life contain an important side from the inherited Civilization to any nation, is distinguished by activity and zeal. The old Indian is characterized with closed and solidify socilal systems. This state had its influences on the activities of the social movment. It astonished the conquered mushins – Arab to the India from the end of the first centuny A.H we tried to change it by good works and made them become aware, so this made radical active in the social India in Islamic period which is form humanbeing nobilitie and their active deal in the society.